المحاضرة الثالثة: فلسفة فيلون الاسكندري.

(تابع للفلسفة اليهودية في المرحلة اليونانية)

1- فيلون الاسكندري حياة ومؤلفاته:

فيلون الاسكندري Philon d'Alexandrie ويعرف أيضا بـ فيلون اليهودي، فيلسوف يهودي (من يهود الاسكندرية) ولد من عائلة يهودية نبيلة بالإسكندرية. وفي ما يتعلق بتاريخ ولادته لم توثق لنا المخطوطات تاريخ ولادته ولكن حسب فيدرينان ديلوناي Ferdinand Delaunay يمكن تحديد تاريخه ولادته من العام الذي اختير فيه من قبل بني جلدته لتمثيل اليهود عند قيصر روما كاليغولا للدفاع عنهم وعن معتقداتهم جراء الظلم الذي تعرضوا له في من قبل الوثنيين في الاسكندرية، والذي كان ذلك في عام 40 سنة للميلاد، حيث وثق فيلون هذه المهمة ويتلكم عن نفسه على أنه نظرا لسنه الذي كان في عمر الشيوخ ومعرفته بالتعاليم اليهودية والمامه الكبير بالفكر اليوناني، اختارته جماعته لتمثيلهم أمام امبراطور روما. فإذا كان فيلون في سنة 40 ميلادي في عمر الشيوخ فأقل تقدير في تلك المرحلة أنه ولد قبل 20 سنة قبل الميلاد ليكون عمره آنذاك على الأقل 60 سنة. لهذا نجد أغلب الكتب والمقالات تتداول سنة ميلاده و وفاته بين 30 إلى 20 سنة قبل الميلاد إلى سنة 40 إلى 50 سنة ميلادي.

اهتم فيلون بدراسة الفكر اليوناني وفلسفته واهتم كذلك بالشعر اليوناني وأدبه، واعجب بهوميروس وبفلسفة افلاطون وأرسطو، ومن الناحية الأخلاقية تأثر كثيرا بالرواقية، كما اهتم بالفلسفة الفيثاغورية وتعلم منها الهندسة والموسيقى والفلك. كتب فيلون عدة مؤلفات باللغة اليونانية ونذكر منها وفق تقسيم وضعه اميل برييه:

1. القسم الأول يضم كتابات فلسفية محضة مثل: الشرح المجازي، عرض الشريعة.
2. القسم الثاني يضم كتابات في شروح التوراة مثل: حياة موسى.
3. القسم الثالث فيتناول مواضيع التبشير والرد على المخالفين: الدفاع عن اليهود. ميزة كتابات فيلون أنها حاولت التعبير عن رؤية فكرية تستند على التوحيد والوحي في بيئة ثقافية وثنية من خلال توظيف مفاهيم فلسفية لم تألف أصلا هذا النوع من التفكير الديني. فكانت فلسفته في النهاية مزج بين الفلسفة والدين، بين العقل اليوناني والايمان اليهودي.

2-التأويل المجازي عند فيلون:

الكلام المثخن بالمجاز لا يفصح عن معناه إلا استعارة وكناية، كلام لا يمكن فهمه على ظاهره لهذا ينبغي توظيف التأويل من أجل تجاوز المعنى الظاهر وبلوغ المعنى الخفي الحقيقي. وقد وظفه اليهود كوسيلة للكشف عن المعنى الحقيقي في النصوص التوراتية المقدسة.

إن وظيفة المجاز بذلك هي محاولة تقريب المعاني الدينية إلى مستوى المعاني المتداولة في الحياة اليومية أو بالأحرى هو محاولة التعبير عن الحقائق الدينية بلغة تتوافق مع الفهم العقلي والمنطقي لعامة الناس. وقد وظف مفكري اليهود التأويل كطريقة لحماية ايمانهم التوراتي والحقائق التي جاءت بها من انتقادات اعدائهم الوثنيين المشككين في معتقداتهم، لأن الوثنيين كانوا يحملون كلمات التوراة على معانيها الظاهرة ونقدها، لهذا لجأ اليهود إلى توظيف التأويل من أجل توضيح أن المعاني الظاهرة والتي تبدوا متناقضة هي في حقيقة الأمر ليست حقيقية وإنما مجازية. وتأويل النصوص الدينية في هذه الحالة هو، بطريقة ما، ممارسة للفلسفة وتوظيف لها من أجل تقريب المعتقدات الدينية إلى الفهم العقلي والمنطقي. فعلى الرغم من أن مفكري اليهود يؤمنون بالتوراة إلا أنهم أيضا كانوا متشبعين بالثقافة والفكر الفلسفي اليونانيين وتوظيفهم لهذا التراث الفكري اليوناني نابع من إيمانهم أيضا بضرورة تبرير معتقداتهم من الناحية العقلية، وبالخصوص حينما يتعلق الأمر بالله وافعاله التي تبدوا متناقضة مع التفكير المنطقي العقلي. ففي التوراة مثلا التي تقول أن آدم وحواء تخفيا لله والله يسأل أدم "أين أنت؟ " فهذا الكلام في ظاهر يتعارض مع علم الله الذي وسع كل شيء فكيف يتخفى آدم وحواء عن أنظار الله وهو يعرف ويرى كل شيء !وكذلك في مسألة خلق الله للعالم في ستة أيام وفي اليوم السابع استراح ونجد أن القول بالاستراحة يتعارض مع قدرة الله...إلخ. لقد كانت هناك دائما محاولات لإيجاد تناغم بين الحقائق اليهودية والتفكير الفلسفي اليونانية أو بالأحرى توظيف الفلسفة من أجل تبرير الايمان اليهودي شريطة أن يكون ذلك في خدمة الدين اليهودي. ويعد فيلون الاسكندري من الفلاسفة اليهود الذين وظفوا التأويل الفلسفي من أجل الدفاع عن المعتقدات اليهودية.

لم يكن التأويل من ابداع فيلون وإنما كان موجودا ومعمولا به في التراث اليوناني وحتى في التراث اليهودي أيضا. ويقسم اميل بريه التأويل عند فيلون إلى ثلاثة أقسام: تأويل يكون مصدره الالهام بحيث يتلقى إشارات إلهية ترشده إلى التأويل الصحيح لكلمات الله، أما القسم الثاني: فهو تأويل نابع من الجهد والابداع الشخصي، أما القسم والأخير فهي تأويلات موروثة من التراث اليهودي قام بها أحبار اليهود السابقين عليه. وفي تأويلات فيلون يؤكد بريه أنه غير متاح التمييز بين التأويلات التي تعود إلى فيلون وابداعه الشخصي والتأويلات التي استقاها من

غيره أي من السابقين عليه، ومن أجل التمييز بينهما يتطلب الأمر تنقيبا دقيقا في كتب الأولين أو من خلال استنباط ذلك من كتاباته التي تحليل بشكل غير مباشر إلى تأثره بتأويلات السابقين عليه

أغلب التأويلات التي قدمها فيلون كانت مرتبطة بالأسفار الخمسة للتوراة، حيث تتناول قصة آدم وحواء وحياة ابراهيم، ويوسف، وقصة الخروج...إلخ، والتأويلات التي يذكرها فيلون إما تكون مستمدة من التراث اليهودي الذي يختار منه بعضها ويؤكد عليها أو ينطلق منها ويضيف إليها تأويلا شخصيا موسعا لها.

والتأويل عند فيلون نوعان إما يكون مرتبطا بالمجاز الكوني أي بالكون ومظاهره، وإما يكون مرتبطا بالمجاز الروحي المعنوي أي بأمور روحية متعلقة بالنفس والعقل، فأما في حالة المجاز الكوني نجده يربط بعض الأمور المذكورة في التوراة مثل التابوت بالسماء وأجرامها المتخلفة، والشمعدان أحيانا يؤوله على أنه رمز السماء والنجوم، وخيمة التابوت على أنها ترمز إلى العالم الأرضي، وأما حينما يؤول التابوت تأويلا عقليا معنويا فإنه في هذه الحالة يشير إلى العالم المعقول وأجزائه تمثل القوى الالهية، وأحيانا يشير إلى التابوت على أنه يمثل الروح بفضائها الخالدة و" أفكارها التي لا ترى، وأعمالها المرئية المشاهدة"، أما "آنية صب الشراب موضوعة على المنضدة فهي تمثل الروح الكاملة تفتح ذاتها لله، وعلو التابوت هو عظمة الروح التي تضحي وتقدم قربانا"، وأما "زيت المصباح فيمثل الحكمة" بهذه الطريقة يؤول فيلون الاسكندري النصوص التوراتية إما بربطها بمظاهر الكون أو ربطها بالأمور الالهية الروحية أو العقلية. فمثلا يؤول قصة الخلق في سفر التكوين تأويلا عقليا روحانيا حيث يعتبر أن الله خلق العقل الخالص والمتمثل في اللوغوس ثم خلق صورة عن هذا العقل الخالص عقلا قريبا إلى العالم الأرضي وهو آدم، وخلق الحس والمتمثل في حواء، فطاوع العقل (أدم) الحس (حواء) وانقاد إلى اللذة التي تمثل الحية التي وسوست لحواء، فنتج عن ذلك الكبرياء ومع كل الشرور والتي يمثلها قابيل، وأما هابيل فيمثل قيم الخير، وأما زواج ابراهيم بسارة فهو يرمز لاتحاد الإنسان الصالح بالفضيلة.

3- الله، اللوغوس عند فيلون:

أولى فيلون لتصور الله أهمية كبيرة في تفكيره، حيث يقسم العالم إلى عالم الله وعالم المادة، ويعتبر الله أصل كل شيء ومدبر العالم وعقله ونظامه ويتميز بالكمال والخلود، أما الثاني فهو عالم المادة؛ عالم النقصان والفناء. بالنسبة لـ فيلون فإن وجود الله أمر بديهي ومحسوم ولا يسعى إلى اثبات ولكن يمكن معرفته من خلال التناغم الذي يحكم العالم وكذلك من خلال خلجات الروح.

الله عند فيلون هو وجود مطلق يكفي ذاته بذاته وليس بحاجة إلى غيره، ولكن العالم الخارجي، على العكس، بحاجة إلى الله الذي يعد سبب وجوده واستمراريته. وبما أن فيلون يؤكد على أن الله هو الذي خلق هذا العالم ويرعاه ويؤثر فيه فإن الرهان هو كيفية تبرير هذه العلاقة بين الله المتعالي والعالم الخارجي؟ وكيف حدثت عملية خلق الله العالم وكيف يؤثر فيه؟

حتى يقرب فيلون طريقة خلق الله للعالم يشبه الله بالمهندس؛ مهندس العالم تماما مثل المهندس الذي يبني مدينة، فإذا كان المهندس يتصور أولا مخطط المدينة ثم يعمل على بنائها، كذلك الأمر مع الله. فالمدينة تتمظهر أولا كتصور كـ"مدينة تخيلية" وبعد ذلك يتم تجسيدها وتصبح "مدينة حسية" مجسمة. إن التصور الذهني للعالم له وجود واقعي عند الله، ويمكن القول أن العالم المصور ما هو إلا اللوغوس الالهي. واللوغوس في هذه الحالة هو يمثل مجموع الأفكار التي ينتجها العقل الالهي. ويفصّل فيلون أكثر في هذه الجزئية حيث يعتبر أن اللوغوس له صورة مزدوجة فمن جهة يمثل العقل الإلهي ومن جهة أخرى يشير إلى مجموع الأفكار التي ينتجها هذا العقل ويعتبر فيلون أن اللوغوس هو ممثل الالوهية والمعبر عنها، أو بطريقة أخرى اللغوس هو الله في حالة نشاط وفعل.

وفي مسألة علاقة الله المطلق بالعالم الفاني والنهائي فإن فيلون يؤكد أن الله لا يتعامل مباشرة مع المادة ومع ما هو نهائي وإنما تأثيره على العالم الخارجي يكون من خلال واسطة وهذه الواسطة هو اللوغوس نفسه، حيث يعد اللوغوس هو وسيلة للتواصل بين الله والمخلوقات، ولما كانت المخلوقات بدورها ليس بمقدورها الاتصال المباشر مع الله فإن ذلك يتحقق عن طريق اللوغوس، وهذه الوساطة ضرورية حتى تستطيع المخلوقات الاتصال مع الله فبما أننا لا نستطيع رؤية الشمس في حد ذاتها وإنما أشعتها فإننا أيضا لا نستطيع رؤية الله (الشمس) مباشرة وإنما نرى أشعته (اللوغوس) وبما أننا نعرف الله من خلال اللوغوس فإن التأمل في الكون لا يقدم لنا تصورا كاملا حول الله وإنما جزءا فقط منه، فنحن لا نملك معرفة تامة حول الله وإنما نعرفه فقط بالقدر الذي يتجلى لنا من خلال اللوغوس.

اللوغوس هو قانون العالم ونظامه، وهو أيضا قانونه الأخلاقي وشريعته، لهذا يسميه فيلون أحيانا بالمشرع لأنه يمثل القوانين والمعايير التي ينبغي على الإنسان اتباعها، وبذلك فالإنسان لا يستطيع معرفة الخير والشر لوحده وإنما عليه أن يتبع شريعة الله التي تنكشف وتتجلى من خلال اللوغوس، وسعادة الإنسان مرتبطة بمدى اتباعه لشريعة موسى وامتثاله لها، وهذه الشريعة هي عالمية لأن الله صقلها في قلوب كل الناس، فمن جهة تملك الشريعة وجودا موضوعيا متمثلة في اللوغوس الذي يمثل القانون الأخلاقي، لكن من جهة أخرى لها وجود ذاتي أو تحول إلى قانون

ذاتي حينما يتم صقلها في قلوب الأفراد. لهذا فشريعة موسى حسب فيلون ليست شريعة خاصة باليهود فقط وإنما هي شريعة عالمية متعلقة بالناس أجمعين.

الحكمة عند فيلون تتمثل في البحث عن الله من خلال معرفة العلل الالهية والانسانية التي وضعها اللوغوس، واللغوس يمثل من جهة، في شقه الروحي، صورة الإنسان ومن جهة أخرى يمثل صورة عن الله، أي أن اللوغوس يمثل نموذجا خلق عليه الإنسان ومن جهة أخرى صورة عن الله. والانسان الحكيم هو الذي يبحث عن الله من خلال اللوغوس، والطريق المؤدي إلى ذلك هي الفلسفة. والفلسفة أو الحكمة عند فيلون هي معرفة العلل الالهية والانسانية والظواهر التي تنجم عنها، والفلسفة هي الطريق الذي يؤدي إلى الحكمة، ويعد الله الموضوع الأسمى للحكمة، والحكيم هو الإنسان الذي بحث عن الله.

والخلاصة التي يمكن أن نصل إليها فيما يخص اللوغوس هو أن كلمة اللوغوس في فلسفة فيلون تحيل إلى عدة معاني منها: العقل، الملاك، النبي، الابن وأحيانا الحكمة، اللغة، الكلمة، وبتعبير آخر يمثل اللغوس ذلك المسار الذي يبدأ من الله الواحد والروحي ليصل إلى العالم المتعدد والمادي.

4- فيلون مدافعا عن اليهود؛ أو في توظيف الفلسفة في خدمة الايمان اليهودي.

حينما بلغ فيلون الخمسين من عمره ذهب إلى روما من أجل الدفاع عن حقوق اليهود عموما ويهود الاسكندرية بالخصوص أين رافع دفاعا عن الديانة اليهودية معتبرا أياها ديانة عالمية ومتصالحة مع الفكر الهيلينيستي. حيث أقنع الامبراطور بولاء اليهود للإمبراطورية الرومانية وبأهمية اليهود في تركيبتها، لأن الوثنيين كانوا يتهمون اليهود بالانعزال والنزعة الجماعاتية وعدم المشاركة في الطقوس والعبادات الوثنية.

من الناحية العقدية هناك ما يبرر الاختلاف والنزاع بين اليهود والوثنيين لأن هناك فرق جوهري بين الرؤية التوحيدية اليهودية التي تؤمن بإله واحد منزه والرؤية الوثنية المجسدة التي تؤمن بتعدد الآلهة. وحتى يدافع فيلون عن الديانة اليهودية عاد إلى التراث الفكري والفلسفي اليوناني وبحث عن ما يتوافق مع الرؤية اليهودية لله حتى يثبت لليونانيين أن اليهود في الجوهر غير مختلفين عنهم. فإذا كان اليهود يؤمنون بإله واحد فإن فكرة الاله الواحد موجودة عند فلاسفة اليونان ويمكن أن نجد جذورها في الايمان اليهودي. ولكن حتى وإن كان فيلون يعتبر أن فكرة الفلاسفة حول الله قريبة من الايمان اليهودي إلا أنه اعترض على بعض التصورات، حيث رفض ما ذهب إليه أرسطو حين اعتبر أن الله هو المحرك الذي لا يتحرك لأن هذا التصور ينفي عن الله الخلق، كما رفض الرؤية المادية لله التي طرحتها

الرواقية التي تعتبر أن الله عبارة عن طاقة حيوية تحرك وتنظم العالم، لأن التوراة تؤكد على روحانية الله وتنزهه من المادية. أما أفلاطون فقد طرح فكرة أن الله هو صانع العالم وأن هناك روحا تسكنه وهي مصدر ديناميكيته، إلا أن الاله الافلاطوني حتى وإن كان صانع العالم إلا أن علاقته معه هي علاقة مفارقة ولا يكترث به، أما فيلون حتى وإن أكد على فكرة أفلاطون حول تعالي الله عن العالم إلا أنه من جهة أخرى يؤكد على أن الله غير منفصل عنه وإنما محايث له وهذه المحايثة يحققها ويضمنها اللغوس.

كما رفض الرؤية الرواقية التي تؤكد على أن العقل الانساني المتحرر من التبعية والوصاية يصبح مثل العقل الالهي. هذه الفكرة في المعتقد اليهودي هي تطاول على الله فالإنسان مهما بلغ لا يمكن له أن يبلغ مقام الله فضلا عن أن يتقاسم شيئا معه، وأن ما يعرفه الإنسان عن الله ليس من جهد الإنسان وسعة علمه وإنما من انكشاف الله له ووحيه ومن دون ذلك لا يستطيع الإنسان معرفة الله. هناك فرق بين تصور فيلون لله ومنه للكون والانسان الذي ينطلق من رؤية توحيدية حيوية وبين الرؤية الفلسفية الوثنية الميكانيكية. إن اله افلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة اليونان هو اله غير منفعل لا يكترث لوضع المخلوقات، صنع العالم وحمل عصاه ومشى، في حين إله فيلون هو إله منفعل يكترث للبشر يعتني بهم ويرشدهم يهتم لحالهم.

إذا كان اليهود يؤمنون أن شرائع موسى هي وحي من الله فإن اقناع اليونانيين الوثنيين بفكرة الوحي لم تكن صعبة ففي التراث اليوناني نفسه توجد فكرة الوحي أو بالأحرى الالهام، وهذا ما تذكره لنا الأوديسا أن ربات الشعر كن يلهمن الشعر لـ هوزيود. إذن فيلون لم يجد صعوبة في تبرير فكرة الوحي. ولكن المهم هو كيفية تبرير الفرق بين وحي إله موسى ووحي ربات الشعر؟

يعتبر فيلون أن الأنبياء أعلى مرتبة من الفلاسفة والشعراء، فضلا أن النبوة مقتصرة فقط على الشعب اليهودي دون غيره، وهذا لا يعود إلى فضل اليهود على الأخرين وإنما فضلهم يعود إلى أنهم شعب كرس حياته لعبادة الله. إذا كانت النبوة مرتبة خاصة باليهود فقط فإن فيلون يضع مراتب أخرى من النبوة أدنى مرتبة من الأنبياء يمكن أن يبلغها أي انسان آخر شريطة أن يمتلك صفاء عقليا، وحتى يثبت فيلون المصدر الالهي للشرائع الموسوية واختلافها عن النبوءات المتعلقة بالفلسفة والشعر والحكم التي كانت شائعة آنذاك ويبين علوها على باقي النبوات الأخرى، ذهب إلى القول أن شرائع موسى تتناغم وتتوافق بشكل تام مع قوانين الطبيعة، وبالتحديد تتوافق مع قوانين اللوغوس التي تنظم الطبيعة، وهذا التوافق التام بالتحديد هو الذي يميزها عن باقي الإلهامات الأخرى، وفي

هذا الشأن تتقاطع أفكار فيلون حول اليهودية مع أفكار الفلسفة الرواقية التي تدعو إلى العيش على وفاق مع الطبيعة.

من ناحية الحياة الأخلاقية يجد فيلون تقاربا بين الرؤية اليهودية للأخلاق والرؤية اليونانية، حيث يشيد فيلون كثيرا بدعوة الرواقية والأرسطية إلى ضرورة تحرير ارادة الإنسان وعقله من الأهواء، وأشاد بفكرة ارسطو حول مبدأ الوسطية، كما اعتبر أن وظيفة الشرائع الموسوية والأخلاق اليونانية هي ذاتها والمتمثلة في مساعدة الإنسان بلوغ حياة أخلاقية فاضلة، ولكن يرى فيلون أن أخلاق اليونان ترتكز على الإنسان في حين يعتبر أن أساس الأخلاق في اليهودية هو الله، فالإنسان وفق النظرة اليهودية عاجز عن كفاية ذاته بذاته لهذا فهو بحاجة إلى الله سواء من الناحية المادية أو من الناحية الأخلاقية لأن الإنسان لا يكون كاملا إلا من خلال التذلل لله واعلان الطاعة له، وبهذا يصحح فيلون مركز الأخلاق الذي كان عند اليونانيين المتمثل في الإنسان ليصبح مركزها هو حضرة الإنسان أمام الله.

عموما يمكن القول أن فيلون يعتبر أن الايمان والتفلسف طريقتان مختلفان للتفكير ولكن في الجوهر متداخلتان. فتشبعه بالثقافة اليونانية وإيمانه بالتفكير الفلسفي لم يمنعه من التشبث بالتراث اليهودي بل وظف الفلسفة نفسها في خدمة الايمان اليهودي والدفاع عنه. وقد راينا كيف استثمر أفكار كل من أفلاطون وأرسطو والفلسفة الرواقية من أجل تبرير الايمان اليهودي، وكيف عمل على تأويل اليهودية بالطريقة التي تتوافق القيم العالمية. وبالنظر إلى الأفكار التي عرضناها يتبين لنا أن فيلون فيلسوف يهودي مهم استطاع أن يجمع بين الإيمان والعقل من خلال جعل الإيمان جوهر الفلسفة، والايمان والتفلسف طريقتان للتفكير ولكن متداخلتان، هذا المزج بينهما نتج عنه يهودية فلسفية تقاطع فيها التفكير العقلي مع التصوف وتقديس التراث